

## غناء السمسامية: من عبقرية مصر

سيف دعنا\*

إلى الشهيد سليمان خاطر ليس غريباً أن تفجر الثورة أكثر ما في الإنسان من إبداع. فهي أرقى أشكال الأداء الإنساني وأنبليها. وقد كان المشهد المصري، خلال أيام الثورة، حقاً تأكيداً لروح مصرية عبّرت عنها عبقرية الإنسان المصري يومياً وعلناً في الشعر، الغناء، الأدب، النكتة، الفن، والفولكلور. كل ما بدا مفاجئاً للبعض من عبقرية إنسان مصر الذي حول العمل الثوري إلى أداء فني رفيع، كان حقاً حدثاً مصرياً يومياً علينا وغير خفي. لكن مخبري الإمبراطورية لم ينتبهوا على ما يبدو، فالمعرفة الإمبراطورية بأحوال العالم مؤسسة على العنصرية واحتقار الآخر، وهي لا ترى ولا تسمع ولا تقرأ إلا ما يبرش من مصفاة إمبريالية معرفية يصحّ النظر إليها الآن على أنها حفارة قبرها.

### بيوت السويس

لم تكن «بيوت السويس» مجرد أغنية ردها ثوار المحروسة في ميدان التحرير بعفوية وحماسة، كما يمكن عدّ النشيد الوطني مثلاً مجرد أغنية أو لازمة متوقعة في مثل هذه المناسبات. «بيوت السويس» مثل «عني يا سمسامية» هي بيان سياسي وتاريخي لا يحمل روح مصر وحسب، بل يعبر أيضاً عن وعي عميق يربط السياسي والاجتماعي ويبرز ما في إنسانها ومكانها من عبقرية. فالأولى كتبها عبد الرحمن الأنودي، أحد أروع شعراء العامية والأقرب لروح ناسها، رداً على هزيمة 1967 وغناها في أوج حرب الاستنزاف أروع أصوات مصر، محمد حمام الذي جمع مزيجاً فريداً وعبقرياً من جمال الصوت العربي والنوبي والأفريقي. والثانية، كتب كلماتها الكاتب غزالي، في أوج مقاومة أبطال السويس لاختراق القوات الصهيونية ثغرة الدفرسوار في حرب 1973 ومحاولة احتلال السويس، وغنتها فرقة أولاد الأرض المقاومة التي شارك أعضاؤها فعلاً في المقاومة.

واستدعاء آلة السمسامية في الأغنيتين، كما في أغلب أغاني المقاومة والثورة (وهي من جنس آلة الطنبور النوبية ويعود تاريخها إلى عهد الدولة المصرية الوسطى وعرفت سابقاً باسم كثر أو كنارة)، ليس مجرد دلالة على الأصالة وحسب، بل أيضاً استدعاء لروح مصر وتاريخها وثقافتها وزججها جميعاً في المعركة مع الطاغية ونظامه. فأغاني السمسامية لم تكن فقط صوت المقاومة الشعبية المصرية وأحد أسلحتها، بل صوت الإنسان المصري البسيط أيضاً. فالبمبوتي، الذي يحمل منذ افتتاح القناة بضاعته البسيطة على قاربه الخشبي الصغير لبيعهما للسفن التي تقطع «القال»، غنى ورقص دوماً على أنغام السمسامية: «إحنا البمبوتية، إحنا ولاد المية». وهذا البمبوتي هو نفسه من حمل السلاح أيضاً ودافع عن بلده وساهم في إسقاط إمبراطوريتين (السفينة الحربية الأميركية التي قتلت البمبوتي محمد فؤاد عفيفي في نيسان 2008 وهو يحاول كسب رزقه، لم تعرف شيئاً عن هذه المهنة أو أهلها أو تاريخهم). والسمسمية حفظت تاريخ البمبوتي المقاوم وتاريخ أهله وروت قصصهم وقصص تهجيرهم من بورسعيد والسويس إلى أنحاء مصر أثناء الحرب:

«بورسيد اسكندرية، اسكندرية بورسعيد هم ناسهم فلهوية، واحنا ناسنا برضو حديد هنا المرسي أبو العباس، وعندنا إحنا أبو الحسن

نابليون جالكه واندا، ومورهاوس جالنا اندفن».

وفي السويس، في 24 تشرين الأول 1973، وقعت المجزرة الأولى للديابات الصهيونية على يد المقاومة الشعبية. مشهد تكرر على يد المقاومة

اللبنانية في وادي الحجير، بعد ثمانية وثلاثين عاماً، فأعلى نفاؤلاً الإرادة على تشاؤم العقل. وبطولة المقاومين وشجاعتهم ليستا موتقتين فقط بشهادات عينية أو بالصورة والفيلم، بل بأغاني السمسامية التي كتبها الكاتب غزالي من وحي المعركة وأثناءها:

«عني يا سمسامية لرحاص البندقية ولكل أيد قوية حاضنة زودها المدافع غني لكل دارس في الجامعة والمدارس لمجد بلاده حارس من غدر الصهيونية غني لكل عامل في الريف وفي المعامل بيادي الواجب كامل واذبله وردة هدية غني ودق الجلاجل مطرح ضرب القنابل راح تطرح السنابل ويصبح خيرها ليا».

لم تعطنا المقاومة العظيمة في السويس الأداء العربي في أنبل أشكاله وحسب، ولم تعطينا فقط أروع ما أنتجه مصنع الثقافة المصرية، بل خلدت تجربة إنسانية عظيمة روى جزءاً منها جمال الغيطاني في «حكايات الغريب». والسويس في الوعي الصهيوني ووعي العرب تحتل مكانة شبيهة بتلك التي تحتلها بنت جبيل اللبنانية التي أهانت عنجنية الكيان الصهيوني مراراً، لدرجة تحولها إلى رمز سيطر باستمرار محط نقمة وغبط لديه. وظل اسم السويس يتردد رديفاً لفكرة المقاومة المصرية منذ منتصف الأربعينيات، ومحاولة احتلالها بالذات في أثناء حرب 1973، تتجاوز كما يبدو في معناها حدود الاستراتيجيات العسكرية.

مثل أبطال المقاومة الشعبية الذين حاربوا الاستعمار منذ الأربعينيات، والصهيونية لاحقاً، مصدر إلهام حقيقي لثورة 2011، كما يشير ترديد الأغنية في ميدان التحرير. تجاوز الشيخ حافظ سلامة الثمانين ولا يزال يرفض إزالة سائر المعركة من أمام مسجد الشهداء، مقر المقاومة في تشرين 1973، لأن الصراع مع الكيان له نيته، كما يقول. والكاتب غزالي، شاعر السمسامية الذي تجاوز الثمانين أيضاً وشارك في كل مراحل المقاومة من البداية محولاً السمسامية إلى أمضى الأسلحة، كآفاته السويس بتسمية شارع باسمه، وكزمه الثوار بتريد رائعته «عني يا سمسامية» في ميدان التحرير نفسه الذي طرد تامر حسني.

لكن هذا الجانب غاب كلياً عن الوثائق ذات الطابع الاستخباري التي سرتبها «ويكيليكس» عن مصر، ويغيب ذلك عن الكثير من الدراسات المصرية في الغرب. الصورة الأميركية المتخيلة لمصر التي ترسمها الوثائق والدراسات الاستشراقية التوجّه، تفسّر - إذا نظر إليها بجديّة - المفاجأة أولاً، والارتباك ثانياً (وهما ما ميز التعامل الأميركي مع الثورة المصرية قبل قيادة الإدارة الأميركية للثورة المضادة، لازمة كل ثورة، ومحاولة الالتفاف على إرادة أهل مصر). غياب روح مصر المطلق، بالإضافة إلى تغيب الإنسان المصري وافترض موته السياسي في وثائق هيمنت على كتبها كما يبدو فكرة «الاستثناء العربي» الاستشراقية العنصرية، كان أول ما سقط في ثورتي تونس ومصر.

### ابن العمدة ومقاولو الأنفار

إذا كان مخبرو الإمبراطورية والناطقون باسمها قد صدقوا حقاً نكتة «حكمة» مبارك و«قوته»، وإذا كانوا قد صدقوا أيضاً استسلام المصريين المطلق لتورث جمال واقتناعهم بعبقريته، فهم لم يعرفوا شيئاً عن مصر، كما يبدو الآن. ليس ذلك فقط لأن الفولكلور المصري تهكم منذ زمن طويل، وحتى قبل ميلاد «عريس الدولة» على ظاهرها «ابن العمدة» (المخلوق التافه الذي برغم أموال والده وسطوته وجبروته ظل محط استهزاء القرية)، بل لأن هذا الاستهزاء يبدو اليوم، وبأثر رجعي، كأنه كان في حينها أضعف الإيمان فقط. ربما لم يكن يعرف المشعوذ جيفري فيلتمان (الوصف للسيد حسن نصر الله)،

حين أفتى باختلاف مصر عن تونس، الأغنية الفولكلورية المصرية «يا حضرة العمدة» التي تقول «يا أبو حميدة متحوش حميدة». وعريس الدولة، جمال، كما سماه أحمد فؤاد نجم، الذي كان سيرت الدولة والبشر، لم يكن في وعي المصريين سوى تقليد فحج وكاريكاتوري للأب المستبد. وبرغم وحشية الاستبداد، فإن مشروع التورث يتجاوز في احتقاره للشعب الاستبداد ذاته: «حا تكمل دينك وتطلع ديننا»، يقول نجم. والمصري كان مدركاً لذلك ومستنهزاً به: «ميرك يا عريسا، يا أبو شنة ورتة، يا واخذنا وراثة، اطلب واتمنى مش فارقة معنا، ولا هاربة بدنا، ولا تابعة قلوبنا، ولا فاقعة مرارنا».

يجب، رغم ذلك، أن نعذر العبقرية جوزف بايدن، نائب الرئيس الأميركي الذي يضع قدمه في فمه كلما تكلم، كما يقول الإعلام الأميركي، حين أفتى بحكمة العمدة مبارك، فحتى لو ترجم له أروع المستشرقين أغنية الشيخ إمام «أوة المجنون أبو برفوقة» التي تعكس كيف يفكر العرب حقاً برؤسائهم، فلن تستطيع هذه الترجمة الإمساك حتى بجزء يسير من عبقرية مصر. كيف يمكن ترجمة الكلمات مع الحفاظ على سياقها الثقافي الذي يعطيها معناها الحقيقي حين تقول:

«والنكتة كمان انه حلنجي، وعامل لي فكاكه وحندوقه مع ان الجحش أفهم منه، والعالم فهمه ومفلوقه».

ربما لم يعرف بايدن كم يمتق العرب طغاتهم وكم لا يطبقون رؤية وجوه المستبد من أصدقائه وخدم إمبراطوريته المتقهرة. العشرات، إن لم يكن المئات، من المدونات وأفلام اليوتيوب القصيرة، التي يبدو أن مخبري الإمبراطورية لم يأخذوها على محمل الجد ورأوها غير ممثلة لما يفكر فيه كل عربي، باحت بكل شيء. فمن أمنية «وفاة الرئيس أطل الله عمره» التي تقول إن «كل الشعب يبدي عليك، يصحى في يوم من النوم يلاقك، نورت التربة معاليك»، إلى «سلامة مرارتك» التي تقول «يا فاقع مرارة مرات الفقير، فلا جوزها جايب، ولا الفقر تايب، ولا حتى سايب، مية في قلة، ولا كوز في زير». لم يعرف بايدن أن أحمد فؤاد نجم كان يستحلفهم باسم الناس أن يريحونا من طلعته ولو ليومين: «نستحلفك، نسترحمك، نستعطفك، نستكرمك ترجمنا من طلعة جناك حبتين عايزين نجرب خلقه ثانية ولو يومين».

## يصلح أن تسمى ملحة السد العالي البيان الشيوعي العربي لشمولها كل تناقضات المجتمع العربي

ولم يعرف من أمن بالعمدة وابنه كم يعرف الفقراء حقيقة أصدقائهما «مقاولي الأنفار» الذين يسميهم الإعلام الرسمي «رجال أعمال»، وكم يكرهونهم، فوثائقهم تخلو من أي ذكر لجوابات «حراجي القط»، أروع ما كتب جامع السيرة الهلالية عبد الرحمن الأنودي. مقال السيرة الهلالية عبد الرحمن الأنودي، الذي يعيش على التجارة بالبشر، مثل مصاصي الدماء أصدقاء «النبي حارسه»، جمال، كان محط احتقار الأسطة حراجي القط، الفلاح البسيط من جبلاية الفار الذي بنى مع رفاقه الملوي وعلي أبو عباس والآلاف مثلهم السد العالي، جميعهم عرفوا حقيقة مقاولي الأنفار هذا:

«ذاك العرش اللي لابس صوف ومكرش من وكل اللحم وشرب عرق ولدت الناس».

والأنودي الذي كتب «الميدان»، أروع ما قيل عن ثورة 2011، كان أكثر من أبداع في التعبير الدقيق وببساطة عن ارتباط السياسي والاجتماعي. فملحة السد العالي التي رواها في «جوابات حراجي القط» هي بيان عن الصراع الطبقي، ويصلح أن تسمى البيان الشيوعي العربي لشمولها وحديثها عن كل تناقضات المجتمع العربي من الصراع الطبقي، إلى قضية المرأة على لسان فاطمة، لتناقض القرية، المدينة، وفي قصيدة «الميدان» التي تمسك بجوهر ثورة مصر على الطاغية يقول:

«السوس بينخر وسارح تحت أشرافك، فرحان بيهم كنت وشايلهم على كتافك وأما أهالينا من زرعوا وبنوا وصنعوا، كانوا مداس ليك ولولادك وأحلافك».

وعبد الرحمن الأنودي هو أيضاً من كتب حوار فيلم «شيء من الخوف» عن الطاغية عتريس الذي ورت الحكم حين كان جمال صغيراً. لكن لم يُكتب للعتريس جمال أن يرث البلد، فأهل مصر قالوا بالدم إن هذا زمن مضى وانقضى ولن يعود، ودفنوا ظاهرة ابن العمدة إلى الأبد.

وفي سياق شعارات الثورة المصرية المبدعة، يبدو الفلاح البسيط حراجي القط اليوم مثل نبي، وصيحات أهل مصر للعمدة «الغلس، الرخم، الرذل، وتخين الجلد اللي ما يفهمش» تبدو كأنها «ارحل يعني امشي»، كما يقولون، تكراراً لما عرفه حراجي عن الذين لا يسمعون، وإن سمعوا فلا يفهمون، وإن فهموا فلا يهتمون: «ناس طول العمر تمشي شايبة على كتوفها هودج فيها ناس من أنقل ناس ناس م النوع اللي ما بيضحكش تصرخي مهما تصرخي ما بيسمعش وإن يسمع ما بيستعناش».

### تحذير المصري الفصيح

كل الإشارات كانت هناك، لكن مخبري الإمبراطورية لا يسمعون، وإن سمعوا فلا «يستعنوش» كما قال حراجي، فالعنصرية



مصريون ينظرون دعماً للثوار في ليبيا (كيفين فرابر - أ ب)

## الاخبار

تأسست عام 1953  
تصدر عن شركة «أخبار بيروت»

مدير التحرير خالد صافية ■ سكرتير التحرير حسان الزين ■ مجلس التحرير عريبات دوليات إيلي شلموب، نفاة بيار ابي صعب، جهمم ضحى شمس، راضة علي صفا، عبد عمر نشابة، افتصاد محمد زبيب ■ المدير الفني اميل منعم

رئيس مجلس الإدارة والمدير المسؤول إبراهيم الأمين ■ المكاتب بيروت - فزاد - شارم دونات - سنتر كوتورج - الطابق السادس ■ تليفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب. 113/5963 ■ www.al-akhbar.com

المعلنات Tree Ad 03 / 252224 - 01 / 611115 ■ التوزيع شركة الواك 03 / 828381 - 01 / 666314 - 15